

رحلة

إلى الواحات البحرية

للمؤنسة على النجدي ناصف

مفتش المعارف بالأسكندرية

ضربنا السحر موعدا للرحلة ، وكان سحرا بديعا من أسجار الربيع ، ندى
النسيم ، عطر الأنفاس ، بهيجا منعشا ، ينسى النومان لذادة الرقاد ، ويشيع في
الكسل المتأفل روح النشاط والخفة ، ويزين له مباكرة الطبيعة قبل أن تستيقظ
وتتنضو عنها ثوب النعاس . توأفينا للموعد خفافا فرجين ، تهادى السلام ،
وتدبأشر يوم مهلل سعيد . وانطلقت بنا السيارة لا تلوى على شيء ، كأنها
الطائر أزعج من مرقدته ، فانفلت في الظلام مذعورا هائما . وكانت القاهرة لا تزال
هادئة ساكنة ، كالهاجع المستغرق في هجته ، بعد نهار ناصب طويل ، زآخر
بالأعمال المضنية ، والأصوات الصاخبة .

لم نكن نحس حولنا حراكا ، ولا نسمع صوتا ، إلا قليلا من عربات
الركوب عن لنا في بعض الطريق ، على قنارات متقاطعة ، ترسل خيلها هنا
وهناك في فتور واسترخاء ، فيترامى إلينا وقع سنابكها على أرض الشوارع ،
في إيقاع رتيب تارة ، وهرجلة مضطربة تارة أخرى ، ثم لانبث هذه الأصوات
أن تبعد وتختف رويدا رويدا ، حتى تغيب في غيابة السكون . وكانت مصايح
الشوارع ونجوم السماء ، تبدى منهوكة حائلة الضياء ، كأنها حراس الليل
المراقبون ، نال منهم طول السهر وجهد المراقبة

ثم أخذت الأهرام تتكشف لنا من بعيد ، تسامتها السيارة ، فتلوح ذراها
قائمة ملساء لا تغضن فيها ولا تجاعيد ، كأنها الأبراج الضخام ، وتصدف السيارة عن
سمتها ، فتواري وراء الدوح الشاخص على حفا في الطريق . وكلما دنونا من مجامعها

زادت في أعيننا ضخامة ، وفي قلوبنا مهابة وجلالا ، حتى بلغناها معالم مجد عتيق وشواهد دنيا عريضة باذخة ، أقرغ عليها بناتها الجبارون كل ما يملك الطاغية المتسلط من أسباب القوة والإحكام ، فكان لهم ماشاءوا لهما من الخلود والثبات . وها هي ذى بين يديك ، فارجع البصر وقد تتبعت عليها القرون فوجاً بعد فوج ، هل ترى بها من وهن أو انحلال ؟ ثم ارجع البصر كرتين ، هل ترى هذه القرون المتطاولة — وهي لا تذر من شيء أنت عليه إلا محقة أو عبث بقوة احتماله — استطاعت حتى اليوم أن تنال منها أكثر مما يستطيع الموج أن ينال من الصخرة العاتية : يتكسر عليها ، ويرتد عنها وقد مزقته كل ممزق أليس جهد ما فعلت بها الأيام هر هذه الغضن البادية في جوانبها ، بدلت من ملابسها خشونة ، ومن إشراق أديمها جهامة وعبوسا ، وماذا في ذلك ما دامت متينة البنية ، متماسكة الألواح .

مضت السيارة قدما في طريقها ، وخلفت الأهرام وراءها ، قياما على الحدود بين عالم الضوضاء والحركة ، وعالم الصمت والسكون ، واندفعت في الصحراء تطوى مراحلها في سرعة وتصميم ، كالعهد بها في شوارع القاهرة المبهدة . وماذا تخاف السيارة اليوم من الصحراء ، وقد اتخذت لكل طارئة أهبتها ؟ فالأدوات مستكملة ، والمهندس حاضر ، والوقود موفور ، والماء والأطعمة غزيرة ، والمقاعد وثيرة ، والظل في الصيف ثابت لا يتحول ، والدفء في الشتاء ميسر ، والطريق أمامها واضح المعالم ، قد صنع به عجل السيارات حبكا واضحات ، هيئات أن يمحي أثرها ، أو تطمس سطورها ، لكثرة ما تعهدها بالتبيين والتخطيط غدوا ورواحا . وعلى جانب الطريق تتوالى الصوى قائمة على كل خمسة كيلو مترات ، تعرض في ألواحها مبلغ ما قطعت من المسافة ، ثم أن نبأ الرحلة يسبق الركب إلى طيته ، فينتظر الناس هناك مقدمه للبوعدة التي اعتادت السيارة الوصول فيها ، فإذا هي تأخرت وقتا غير مألوف تجردوا لنجدتها خفافا غير وانين ولا مترددين .

فماذا بقي للصحراء من مهابة ؟ وماذا يمكن أن تضمره لسالكها من مخاطر ؟

لقد كان الناس قديما يخشون بأسها ، ويقبلون على اجتيازها إنبال المغامر
يركب الهول وهو عالم بركوبه ، يوم كانوا ولا عدة لهم في اجتيازها غير الجمال ،
ولا حيلة لديهم يتقون بها الماطب ، أما اليرم فلا . فتمسح السيارة إذا جريته
مقداما ، لا تخاف خطرا ، ولا تهاب عاقبة الاندفاع . وماذا ترك الإنسان من
صعب لم يذله ، أو خوف لم يقتحمه ، أو بعيد لم يدركه ، أو خطر لم يعمل على
اتقائه ، في جر السماء ، أو تحت أطباق الماء ، أو في فجاج الغبراء ؟ نعم هذه
السيارة الذلول ، المتحدرة كتحد الماء في صبيه قد تزل فتقع فإذا هي مهلكة
أى مهلكة ، ولكن متى كان ذلك واقعا في الصحراء لا غير ؟ ومتى كان الإنسان
على فراشه ، وبين أهله وعشيرته ، بل بين يدي الطبيب النطاسي — بمنجاة
من التهلكة ؟

بلغت بنا السيارة قارة حامد ، وهي قارة موضع تكثر فيه طرائق السيارات
وتذهب فيه مذاهب شتى ، لكثرة المختلفين إليه ، وليس به معالم تهدي إلى
الطريق كالتى تقوم بما يلى هذا الموضع إلى الواحات البحرية ، ولذلك يحذره
السائقون ، ويتوجسون منه . مخافة التيه فيه .

وكان الظلام قد ولى ، وشاعت في الكون تبشير الصباح ، وطفى نوره
على النجوم ، فغمرها بلا لائمه كما يغمر الماء الفياض مباسم النوار ، وتعرضت
في الجانب الشرق حمرة قاتنة ، تترامى في بعض حواشها غبرة خفيفة ، كأنها
طلائع الكهولة تخالط نضرة الشباب ، أو اليأس العارض يلابس الأمل البسام
فأدركنا أن مشرق الشمس قد دنا ، وأن الاتفاق يتأهب لاستقبالها مشرقا مبتهجا ،
بعد أن احتجبت عنه عامة الليل .

وكان الهواء على حقيقته نسيما رقيقا ، لا صوت له ، ولا عنف فيه ، تستقبله
فتحس منه نفحات رطبية لينة ، تطيب بها النفس ، ويسكن إليها الوجدان ، ولكن
إسراع السيارة في مسيرها جعل منه ريحا هائجة ، ذات دوى وعنف ، لا قبل لنا
بهما ، ولا صبر لنا عليهما ، فاعتصمنا بزجاج النوافذ ، لسدها به ، إلا فرجaisيرة
أمسكنا عليها ، لتجديد هواء السيارة ، وإصلاح فسادده ، وما لبثت الغزالة أن

أطلت من وراء خدرها نقيّة الصفحة، مهللة المحيا كأنها الدينار المشوف،
فأنسنا بهزّاتها، وابتسمنا لها فرحين. ولم تكد تستوى على عرشها، حتى أقبلت
تشر أشعتها الذهبية على أديم الصحراء، وذوائب الربا والنجاد، فإذا كل شيء
يمختال في غلالة حمراء زاهية، كأنما حيكت من الوشي، أو من خيوط الذهب
وكانت كلها غلت صعودا في السماء، تخفف من صبغها الأحمر الوهاج، فيشرق
نجيدتها، ويسطع نورها، حتى صار باهرا أخاذا يكاد سناه يذهب بالابصار.
وكانت نخلال ذلك لا تنسى الكون. ولا تلهو بأصباغها عنه، بل كانت به
مشغولة، وإليه منصرفة، تبادلها شرقا بشرق، وإقبالا بإقبال، وتخلع عليه الغلالة
بعد الغلالة من نسج أنوارها، وفي ألوان أصباغها، تطوى هذه، وتنشر تلك،
فإذاهما أبدا على توافق وحسن مشاكلة.

أرثفح النهار، وأخذنا نحس فعل الهواء النقي واليقظة الباكرة، فتزرا في
أجسامنا وإحياء، فلم يكن بد من النوم نستجم فيه، ونشدد عنده بعض النشاط
والراحة، ولكن أين منا النوم؟ وهل من سبيل إليه الآن، والسيارة لا تزال
منطلقة إلى طيتها، ماضية على سبتها في تصميم وإضرار؟ وهي على ذلك لا تفأ
تتهزنا هزّا عنيفا، تحتاج له أعضاؤنا، ولا نكاد نسلم معه من صدمة ببعض
أجزائها، أو دفعة هنا وهناك. غير أننا لطول ما لقينا من السامة والنصب، لم نصبر
طويلا على هذه الليقظة الخاملة.

فويظهر أنني كنت أشد صاحبي تبرما لهما، وأقلهما احتمالا لها، لذلك كنت
أسبقهما إلى التماس الخلاص منها، فأغمضت جفني، وأرسلت الجسم على راحته
لا أبقى على تماسك أعضائه، ولا أريد عضوا منه على غير الوضع الذي يؤثره
ويجحد الراحة فيه، وفعل صاحبي كما فعلت، فغفونا غفوات قصارا، زارنا النوم
فيها إعجابا وحسنا، يلم إذا أسهمت السيارة، وينقر إذا أدركها العتار، لكن
هذه الرقدة على اضطرابها وتقطعها قد أجدت علينا كثيرا، بما بعثت في نفوسنا
من الرضا والانبساط، وما أعادت إلينا من المرح والنشاط، إلا أننا مع كل
أولئك لم نكن نستطيع الحديث، ولا نجد فيه شيئا من الإيناس والتسلية، فأقلنا

منه، واختصرنا فيه، وألزمناه حدوده لا يتشعب ولا يستفيض، ولم نكن نأخذ فيه إلا حاجة داعية، أو غريبة غارة تثير التعليق عليها، أو تمن لأحدنا ولا يريد أن يتفرد برؤيتها؛ ذلك لأن كل شيء في الصحراء صامت مطرق، تغلب عليه الجفوة والاحتجاز، ويوحى بالخلوة إلى النفس، والإصغاء إلى همسات الخواطر وتدبر خلجات الوجدانات.

نعم فالصحراء عالم مهول، لا يحيط به التخيل، ولا يدرك الظن مدى اتساعه موحش، لا حياة فيه ولا حركة، تخفى الرياح في أرجائه رفيقة لينه، أو تدوى هوجاء عاتية، تثير الرمال والحصى الدقاق فإذا هي قذى يرمد العيون، وإبر تحز الوجوه وشجا تضيق به الصدور ويعسر معه التنفس، وسحاب كثيف يربده الأفق، ويتقاصر منه مدى النظر، وتترارى معالم الطريق، ويتعرض السالك للتيه والاعتساف، أما التربة فجرداء مقفرة، عليها رمال ثابتة أو منهارة، وحصى مدقاق أو كبار، بعضها أغبر خالص، وبعضها أغبر مشوب بسواد، كأنما أدركته النار فلوحت. وليس بها من النبات إلا قليل، وهو على قلته حائل مهزول، كأنه زغب أفراخ، أو بقية الشعر في رأس الأصلع. ومنه النامي في غير فراهة ولا رواء، أحوى اللون، كليل الفروع، ناضب الماء، صغير الأزهار، حتى لتخالها ومضات كاسفة، أو خرزات تربة، أو شررا خامدا. وبأخذك قبل هذا كله نجاد مشرفة كالقلاع، وريهاد هابطة كأنها التفاريح بين الأمواج العالية في البحر الضخم، وآكام شاخصة لفتحها الشمس فأسود ظاهرها، وبدت كالعابد المتخشع، أسدل شمره الطويل، أو التفع بمسوحه السود فشاهد الصحراء كما ترى — جافية قاسية، تغلب عليها المهابة والعبوس، ولكنها مع ذلك لا تخلو من الجمال الساذج لاصناعة فيه ولا تكلف، الجمال المؤثر، الذي يحمل على الخشوع والنوقف والإجلال، ويدعو إلى الإذعان والتسليم والالتجاء ويوحى بالتجرد والإيمان بأسرار الغيب. تتابعت هذه المشاهد معادة مكرورة تمر بنا، معجلة كأنها مناظر الخيالة، أو خواطر النفس المتفكرة، وكانت السيارة أثناء ذلك لا تسير على وثيرة واحدة لاختلاف طبيعة الأرض في مراحل الطريق.

المنعددة ، فهي هنا صلبة ذات جدد واستواء ، وهنا صلبة ذات ارتفاع وانخفاض
وفي مكان آخر لينة عليها رمال غير متماسكة ، لذلك كانت السيارة تهتز حيناً
كالمتبخر ، وحيناً يقبل مقدمها على مؤخرها طرداً وعكساً ، كالقارب يتعثر بين
هبطات الموج ، وتارة تمر مر السحاب ، لانكاد نحس لها حراكاً .

ثم بلغنا بخيرة الزراعة ، وهي غرفة من الخشب ، بمدرجة الطريق إلى يمين
الذهاب إلى الواحات البحرية ، أقامتها وزارة الزراعة لبعض شأنها في الصحراء ،
ثم استغنت عنها ، وتركتها مثابة للمسافرين ، فأصبحت أشهر معالم الطريق ،
ومحطة الوحيد ، ينزل المسافرون فيه ، فيستجمرون ، ويمشيون تحت ظلاله حاجتهم
من الطعام والشراب ، وقد يبيتون فيه إذا أدركهم الليل . نزلاً في البخيرة قرابة
الساعة الثانية بعد الظهر ، وقد حمى الجو ، وراحت الريح تنفث مثل أنفاس
المجموم . فأويننا إليها مجهردين ، وذكرنا فيها الحضر : وحتنا إليه ، كأنما طالت
غيبتنا عنه ، وأصبح عهدنا به بعيداً . بسط لنا السائق نمطاً كان معه ، فاتخذنا
مجالسنا عليه بين أحضان البخيرة ، سعداء فرحين ، وأقبلنا على طعامنا نطعمه في
رغبة ولذة ، كأنما كان شيئاً ممنوعاً ، طال شوقنا إليه ، وطلبنا أيامه ، فنحن وقد
ظفرنا به ، نلتهمه الاتهاماً ، وما كان من ذلك في قليل ولا كثير ، فلما كان إلا
طعاماً مألوفاً ، وهكذا شأن كل شيء في الحياة ، تختلف قيمته ، ويتغير حكمنا
عليه وشعورنا به ، بحسب نسبه إلى غيره ، حتى لقد يتوارد حكمان متناقضان
على الشيء الواحد ، ينسب إلى شيئين مختلفين .

ثم عدنا إلى السيارة الساعة الثالثة ، وكان الهراء لا يزال حاراً كعهدنا به ،
ومضت السيارة في طريقها بين مشاهد كالتى رأينا قبل البخيرة ، حتى أتينا البحر
وهو بقعة واسعة ، يترأكب فيها الرمل طبقات بعضها فوق بعض ، وترسم الرياح
على سطحها تجاعيد متموجة ، كالتى يصنعها النسيم إذا خطر على صفحة الغدير .
فهى لذلك شبيهة بالبحر ، وجديرة أن تسمى باسمه ، والسائقون يخشون البحر ،
ويجمعون لعبوره كل مأوتوا من براعة وحذق ؛ لئلا يسوخ عجل السيارة في
الرمل ؛ فلا يمكن خلاصها إلا بشق الأنفس . وقد كان سائقنا لحسن الحظ

يقظا طويل المران ، كثير الاختلاف إلى الواحات ، سريع التغير للسيارة ، فلم يضطرب ، ولم يد عليه إثارة من تهب ، وتأثر نابذاته ورباطة جأشه ، فاجتزنا البحر في طمأنينة وسلام .

ثم وصلنا إلى النقب ، وهو مكان وعرة ؛ بينه وبين الواحات البحرية نحو خمسة وثلاثين كيلومترا ، تكثر فيه النجود المختلفة الأشكال والألوان ، ما بين مستوى السطح ومتغضنه ، ومتحفز كأنه يريد أن ينقض ، وباسط عطفه كالمتهبي ، للغزاق ، ومتضام التجاليد كالتدثر تصوننا واحتجازا ، ومنها الأحوى ، والأبيض ترهقه غبرة ، أو تخالطه زرقه زاهية ، كأنما ذر عليه مسحوق زهر البنفسج ، أو كأنه القطيعة الزرقاء تمشي البلى فيها فتساقط الخمل من بعض أقطارها . وربما كان هذا النوع من النجود أشدها إثارة للانتباه ، وقيدا للابصار ؛ لغرابة منظره ، ونقاء زرقته في بعض مراضعه . ويتخال هذه النجاد أودية ومسارب ، تمتد أثناءها كشبان كثيرة ، يترامى بعضها إلى مسافات بعيدة ، في كمال اتساق وحسن استواء ، كأنها صبر عظيمة من القمح ، تناولتها بالتسوية والتنظيم أيد صناع . وبين هذه النجاد والكشبان ينسرب الطريق ، وإنها لتضام من حوله حيناً حتى تسكاد تحيط به ، وتأخذ المنافذ عليه ، فيسلك من هنا وهناك في تعطف وانحدار ؛ وحيناً تتراجع عنه فجأة أو على التدرج ؛ فيتسع أمامه المجال ، ويخلوله وجه الصحراء .

ثم بلغنا العين المعلقة ، وهي عين قليلة النز أصابها في رأس تلعة مشرقة ، ولعلها سميت بالمعلقة لذلك ، يغتن فيها الذباب ، ويلتف من حولها الأشجار ، وضروب من الحشائش وبينها وبين الواحات البحرية نحو خمسة عشر كيلومترا وهي أول ما يصادف المسافر إليها من دلائل الحياة في الطريق ، منذ يفارق الأهرام .

وحوالى الساعة السادسة ، وصلنا إلى الواحات البحرية ، لانكاد نحس شيئا من وعاء هذا السفر الطويل ، ولا يكاد تبدو علينا من آثاره سوى غبرة العثير ، على ملابسنا وأهداب أعيننا ، حتى إذا نفضنا هذه الغبرة ، وأصلحنا من

شأننا وشأن ثيابنا، عدنا كما كنا قبل الرحلة . ولعل رقة الهواء، وفرحة الوصول، وانصرافنا عن التفكير في أنفسنا إلى النظر فيما حولنا، كل أولئك أنساها النعب والكلال إلى حين، فلما أويينا إلى مضاجعنا وأخلدنا إلى النوم، وجدنا الإعياء والفتور .

وبعد، فالوحدات البحرية مركز من مراكز الإدارة، تابع لمحافظة الصحراء الغربية، حاضرتها البايطة ويتبعها القصر، وهي مجاورة لها، وتكاد تكون بلداً واحداً، ومنديشة، وبينها وبين البايطة نحو ثمانية كيلو مترات، والزو، وبينها وبين مندبشة نحو كيلو متر واحد، ثم الفراقة، وبينها وبين البايطة نحو مائتي كيلو متر .

وفي البايطة من فروع الوزارات والمصالح - المركز، ويضطلع بأعمال الشرطة والقضاء الأهلي، والمحكمة الشرعية، وتفتيش الصحة، والمدرسة الأولية وهي تابعة لمصلحة الحدود، ومكتب البرق غير السلكي، ومكتب البريد، وفرع قسم البساتين، ويقوم على اصطناع ألوان من الأشربة والرب، واعتصار الزيتون، وحفظ التمر في صناديق مختلفة الوزن والحجم، بعد تنظيفه وتنقيته، ويجهز آفات الزراعة، ويصد غارة الرمال على الزروع، ونحو ذلك . ويتعلم في المدرسة نهرا ٨٤ طفلا، بينهم خمس بنات، وليلا ٦٥ عاملا، تتفاوت أعمارهم تفاوتاً كبيراً .

ويعيش الموظفون هنالك إخواناً متوادين، كسائر الموظفين في الجهات المنقطعة النائية، تؤلف بينهم أسباب الحياة المحدودة الهادئة، الخالية من لاهي المدن وشواغلها، وتجعل منهم أسرة واحدة لا تتفاوت بين أعضائها ولا تميز؛ تراهم إذا قدم المساء مجتمعين في ناديهم يتلمون بالسمر، أو القراءة، أو اللعب، أو الاستماع للذياع .

أما سائر بلاد المركز، فليس بها من فروع الحكومة سوى مدرسة مصلحة الحدود الأولية بمنديشة، ويتعلم بها نهرا ٦٥ طفلا، بينهم بنت واحدة، هي بنت رئيس المدرسة، وليلا ٤٩ عاملا، وسوى صيدلية إسعاف بالفراقة،

يتولى أمرها ممرض ، وفصل دراسي واحد أنشئ فيها العام الماضي ، وجعل تابعاً لمدرسة الباويطي ، يتعلم فيه ٢٧ طفلاً ، ولعله في تاريخ التعليم هو الفصل الوحيد الذي يفصل بينة وبين مدرسته نحو مائتي كيلو متر .

وجهرة الأهالي في هذه البلاد فقيرة رقيقة الحال ، ألوانهم كاسفة ، وأجسامهم ضامرة ، يقل فيهم البدين والمائل إلى البدانة . ولقد ترى الغلام تحسبه ابن بنت أو سبع ، وهي في الحقيقة ابن ثلاث عشرة أو يزيد ، وأكثرهم حفاة لا يتخفون ثيابهم من نسج القطن الأبيض أو المخطط ، ويضعون الطراقي على رؤوسهم ، سراء عامتهم وخاصتهم ، إلا في يوم الزينة فياتفع الخاصة بالازدية ويضعون الطرايش المغربية ، ومنهم من يلبس الجبة والطيأسان . وليس فيهم من يتجاوز في تعليمه حد الدراسة الأولية . ويكثر بينهم الطلاق والزواج لغير داعية حافزة ، أو لغير داعية البتة سوى الإلف والرغبة الفاشية في تغيير المرأة . وقل مع ذلك أن يشور نزاع بين المرء وزوجه بسبب الطلاق ؛ ولعل مرد ذلك إلى أن الناس هناك يعيشون عيشة لا تزال في جماتها قريبة من الفطرة ، خالية من تكاليف الحضارة وأعباء الحياة المتفرقة الكثيرة المطالب .

وتلبس النساء جلابيب موجهة ، أو سوداء مصبغة ، معظمها مطرز بخيوط الحرير الملونة ، ويضربن بالخر على رؤوسهن ، دون أن تشد عليها العصابات أو المناديل ، ويتحاین بالدمالج ، والخلاخيل والخزائم ، ويندر أن تحتذى الفتاة قبل أن تتزوج . ولا تجهز العروس من مهرها ، بل يستولى وليها عليه ، ويتولى العريس كسوتها ، وإعداد الفراش لها ، وهو حصيرة ولحف . وأقل المهر خمسون قرشاً ، ولا يزيد أكثره على خمسة جنيهات إلا نادراً . وإذا كان يوم التأسوع لم يكن الرجل قد بنى بزوجته حمل إليها هدية (البصاصة) ، وهي أداة من جريد كانتا تقص في رأس جريدة ، يوضع فيها ديك رومي حي ، أو زوج حمام ، وبعض الشاي والسكر ، ويبسط عليها شقة من نسيج ، تفصلها العروس ثوباً لها ، ثم يحمل العريس البصاصة ، ويسير في موكب من لداته وذوي قرياه ، وأصدقاء

أسرته، يتقدمهم الزمار والطبال، حتى إذا دخلوا منزل العروس قدم إليها العريس هديته يدا بيد.

وقبل ليلة الزفاف بأسبوع، يهدى إليها كذلك قدوا من القمح والأرز والسكر والشاي، يحمله هذه المرة على حمار، في مركب كموكب البصاصة. وتقام حفلات الرقص في منزل العروسين منذ هذه الليلة إلى ليلة الزفاف، فيجتمع الرجال هنا وهناك، وتنهض الفتيات بين أيديهم للرقص على التابع، فرادى أو متنى. وفيهن العروس نفسها. تقف الراقصة وبين يديها عصا، فتركزها، وتميل عليها بعض الميل، ثم ترقص رقصة العجز على نقرات الطبل، ونغفات الضابوب. وإذا كان أصيل يوم الزفاف حملت العروس إلى بعلاها على جمل في هودج، ومعها حاشية من قريباتها وأزائها إن كانت من الطبقة الراقية، وإلا حملت على حصان، يركب معها أحد أقربائها، وقد شد كلاهما إلى الآخر بحبل لا يحل حتى يبلغ الموكب منزل العريس. ويعتكف العروسان بالمنزل سبعة أيام بعد ذلك، تسمى عندهم أيام الحجة.

ولأهل الواحات ولع بالشاي عظيم، ربما لا يعدله فيه طعام أو شراب؛ لذلك فهم لا يصبرون على تركه إلا قليلا من النهار، ولا يكاد يشغلهم عنه شاغل، بل أنهم لا يطبقون أعمالهم، ولا يستطيعون المضي في معاناتها إلا إذا استوفوا حاجتهم منه، وهم يشربونه ست مرات في اليوم، ويتقدمه في كل مرة بلاغ من طعام، وقد يضعون عليه حب الفول السوداني المحمص المقشور، كما يضع البندق على القرufe.

ولو أن أهل الواحات يشربون الشاي من نوع جيد، ولا يسرفون في إغلائه لأن خطبه وخفت مضرته، لكنهم يضعون على القليل من الماء ما يربو على مثله من الشاي، ويندر مع ذلك أن يكون من صنف جيد، ثم يغلونه ثلاث مرات، يكون في أولها قليل من السكر جدا، حتى ما يكاد يسيغه من لأعهد له بشربه، وفي الثانية يزيدون سكره، ويضعون غايه النعناع، فتخف

مرارته وتطيب رائحته، وفي الثالثة يكون أحلى طعماً، وأرق قواماً، وأصفى لوناً، وينشدون في ذلك.

أول دور شاي مر ثاني دور نضاع يضر

ثالث دور يزيد حلاه

ولو رأيتهم وقد اجتمعوا لإعداد الشاي وشربه، لرأيت من أمارات الإقبال والجد والتزام الطريقة، ما يدل على أن هذه العادة قد تمكنت منهم تمكناً شديداً، حتى أصبحت ذات تقاليد وأوضاع مرعية الحدود. تراهم جالسين حول الطبلية، وقد جلس ساقهم القرفصاء، يستوقدون النار، ويضع عليها الإبريق، وينظم أكوابه الصغيرة على الطبلية، فإذا تم إعداد الشاي تناول الإبريق، وأقبل على الأكواب يسكب في كل منها قرابة نصفه، ثم يعود فيكمل ملاءها على الترتيب، وإنه في سكب الشاي ليبدأ وبلبل الإبريق إلى حافة الكوب، ثم يرفعه صعوداً إلى حد معين اعتادت يده الوصول إليه، فهو لا يتكلفه ولا يتحرى الوصول إليه، ثم يعود فيبسط بالإبريق فجأة حتى يرجع إلى وضعه أول ما بدأ السكب، فيرغى الشاي حتى تكاد الرغوة تشغل نحو ربع الكوب.

وهم يعالجون من الصناعات — الزراعة، ونسج الحصر، وعمل مكانس الليف، وأوان من الفخار، ومقاطف ونحوها من الخوص. وليس لديهم من آلات الزراعة سوى الدالية. ويعتمد الملاك في زراعة أرضهم ولو قليلة على أجراء يسمونهم الخدم. وقل أن يكون فرق بين بزة الخادم والمخدوم. وللخدم ثلث الحاصلات يختص الواحد به، ويشتركون فيه إذا تعددوا إلا التمر فللخادم كباسة من كل نخلة أبرها وقام بخدمتها. ويزرعون من الفاكهة — النخل، والكرم، والتين، والرمان، والتفاح، والخوخ، والبرتقال، واليوسفي، والمشمش، والليمون الحامض، والخلو، ومن غير الفاكهة — القمح، والأرز، والعدس، والزيتون، وبعض الخضر.

ولغتهم في جملتها شبيهة بعامية العرب بوادي النيل على اختلاف في بعض

الكلمات، وفي اللهجة وطريقة الأداء، فمن الكلمات التي لا أعرف لها نظيراً في غير لغتهم كلمة (راك) بمعنى ليك، و (إلاه) بمعنى لا الجوائية، و (الدرابة) بمعنى الباب، و (الخطية) بمعنى الحقل.

ومن خصائص لهجتهم تفخيم الميم المفتوحة مع إشمائها الضم إذا وليها حرف علة كثمانية، و (ميه) بمعنى ماء، ومنها إبدال الجيم زايا (كزوز) في زوج و (ززار) في جزار، وإبدال الشين سينا (كسعر) في شعر. ذلك إلى شيوع النصغير، وسرعة الأداء.

والمذهب الشائع بينهم، هو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. أما مساكنهم فكان أكثر مساكن قرى الوادي ودساكره، فاسدة النظام، دانية السقف، قليلة النوافذ، راكدة الهواء، حائلة النور، وقوامها اللبن، والرمل، وجنوع النخل، وجريده، ويمتد بينها مسارب وعرة الأديم، ضيقة المجال، كثيرة الالتواء.

على النجدي ناصف